حول مفهوم الثقافة الوطنية (1)

1 — مفهوم «الثقافة»

اعتقد انه سيكون من المفيد ، قبل القيام بمحاولة تحديد اجمالي عام لمفهوم «الثقافة الوطنية» وشروطها الاساسية وسماتها البارزة ، ان نبحث اولا فيما تثيره كلمة «ثقافة» في اذهاننا من معان ودلالات ، وما ترسمه امام خيالنا وفكرنا من آفاق وابعاد ، خصوصا والامر يتعلق هنا بواحد من تلك المفاهيم المطاطة المعرضة دوما للغموض والالتباس ، من جراء اختلاف استعمالها وتباين المعاني المقصودة منها .

نعم ، ان كلمة «**ثقافة**» ترتبط في اذهاننا اليوم بشؤون الفكر عامة، ولكنها مع ذلك ، لا تثير فينا مضمونا واضحا محددا ، ولا تضع امام افهامنا دلالة دقيقة جلية . ولعل السبب في هذا ، راجع — كما لاحظ بعض الباحثين — الى ان هذه الكلمة حديثة العهد في زادنا الفكري ، جديدة على ثروتنا اللغوية . آية ذلك : ان معاجمنا لا تعطينا عن اصل هذه الكلمة ومشتقاته الا هاتين الدلالتين او ما يشبههما : «يقال ثقف الولد ، اذا صار حاذقا ... وثقف الكلام ، حذقه وفهمه بسرعة» . ويقال كذلك : «ثقف الرمح اذا قومه وسواه ..» وهكذا نلاحظ ان معنى «الثقافة» عند اجدادنا العرب كان : **الحذق والذكاء وسرعة الفهم** ، فهي من هذه الناحية **خصلة عقلية** وليست مفهوما مجردا . كما ان التثقيف كان يعني التقويم والتسوية وهو خاص بالرمح والعود ، ولم نعثر على ما يفيد امتداد هذا المعنى — معنى تثقيف الرمح — الى الفكر او الذهن ، فالكلمة المستعملة في هذا الشأن

(1) — القيت هذه المحاضرة في كل من مدينة مراكش والدار البيضاء ضمن النشاط الثقافي لجمعيات اساتذة الثانوي (ابريل 1971).

هي : **«التاديب»** .. كل ذلك يـدل على ان كلمة «ثقافة» لم تكـن فى اصلها العربى **مصطلحا** لشيء من الاشياء الفكرية ، ولا **مفهوما** يتمتـع بقوة المفهـوم ، اى بدلالة معينة محددة ، عامة ومجردة.

ومن هنا يتأكد ذلك الراى القائل : ان كلمة «ثقافة» فى الاستعمـال العربى الحديث ، كلمـة مولدة ، اشتقت للدلالة على المعنى المجازى لكمـة «Culture» الفرنسية ، وهو اشتقاق موفق ، خصوصا اذا لاحظنا ذلك التقارب بين المعنى الاصلى للكلمة : الحذق والتسويـة ، والمعنى الجديد الذى صيغـت للدلالة عليـه .

ان كلمة **Culture** الفرنسية تعنى فى الاصل **الزراعة والفلاحة** اى مجموع العمليات الخاصة بالعمل فى الارض قصد استغلالها زراعيـا لفائدة الانسان والحيوان . وقد تطور مدلولها ، ابتداء من القرن السادس عشر ، لتفيد معنى مجازيـا هو : **«تنمية بعض القدرات العقلية بالتدريب والمران»** ثم لتـدل بعد ذلك على **«مجموع المعارف المكتسبة التى تمكن من تنمية روح النقد والقدرة على الحكم»** .

لقد نقلت الكلمة الفرنسية ، اذن ، من زراعة الارض واستغـلال خيراتها ، الى تدريب الفكر وجنى ثمراته : من **«نتاج الارض»** الـى **«نتاج الفكـر»** ، وسرعان ما وقع التأكيد على ان مدلولها فى ميدان الفكر يجب ان ينصرف الى فعل الانتاج اكثر من الالحاح على الانتاج نفسه ، بمعنى ان المقصود منها يجب ان يكون : ما يكسبه العقل من قـدرات على التفكير السليم والمحاكمة الصحيحة ، بفضل المعارف التى يتلقاها ، والتجارب التى يخوضها ، لا ما يضمه الفكر بين جنباته من متنـوع المعارف وكثير المعلومات . لقد الح كثير من الكتاب الفرنسيين منذ عهد النهضـة الى اليـوم على هذا المعنى ، ويكفى ان نشير هنا الى تلـك التفرقـة الشهيرة التى اقامها مونتانى **Montaigne** بين ما سمـاه **«الرؤوس المصنوعة جيدا»** وما اطلق عليه : **«الرؤوس المملوءة جـدا»** مفضلا الاولى على الثانية . ولعل الكثير منا سمعوا ايضا بذلك التعريف الطريف الذى اعطاه المسيو هيريو **Herriot** لـ «الثقافة» حين قال: انها **«ما يبقى لدينـا بعد ان ننسى كل شىء»**.

هذا بالاجمال ما يتعلق بالمعنى الفرنسى للكلمة . ومادمنا بصـدد بيـان مختلف الدلالات التى تحملها هذه الكلمة فانه يحسن بنا ان نعرج

على ذلك المعنى الخاص الذى يستعمله فيها علماء **الانتروبولوجيا** ، خاصة الانجلو سكسون منهم . انها تدل عندهم على مختلف المظاهر المادية والفكرية لمجموعة بشرية معينة تشكل مجتمعا بالمعنى السوسيولوجى للكلمة . يقول الاستاذ تايلور Taylor . أن الثقافة هى «**ذلك المركب الكلى الذى يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعادات واى قدرات وخصال يكتسبها الانسان نتيجة وجوده عضوا فى مجتمع**» . ويقول الاستاذ لنتون Linton : ان الثقافة «**تنظيم للسلوك المكتسب ولنتائج ذلك السلوك ، يشترك فى مكوناتها الجزئية افراد مجتمع معين ، وتنتقل عن هؤلاء الافراد**» ... وعلى العموم ان كلمة «ثقافة» فى الاصطلاح الانتروبولوجى تعنى ما نعبر عنه نحن اليوم بـ «**حضارة**» . انها ليست البناء الفكرى وحسب ، بل انها ايضا السلوك الفردى والمجتمعى وما يرتبط بهما من تقاليد واعراف واخلاق، وقد يضاف الى ذلك كله ادوات العمل والانتاج .

تلك كانت ، على العموم ، الدلالات الرئيسية لمصطلح «ثقافة» فى عالم اليوم ، فاى منها نقصد عندما نكون بصدد الحديث عن «**الثقافة الوطنية**» ؟

ان المعنى الانتروبولوجي للكلمة اصطلاح فنى خاص باولئك الذين يعنون بالبحث فى أصل الحضارات وخصائصها المميزة ، خصوصا البدائية منها ، وبالتالى فهو بعيد عن موضوعنا . وبالمثل فان المعنى الاصلى للكلمة ، سواء فى اللغة العربية او الفرنسية ، وهو المتصل بالرمح وتقويمه ، او بالزراعة وانتاجها ، بعيد عن نطاق اهتمامنا هنا. يبقى بعد ذلك المعنى المجازى الفرنسى وهو الذى قلنا انه : «مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية الذوق وروح النقد والمحاكمة» . وهذا بالضبط ما يتصل بموضوعنا اتصالا وثيقا .

2 — مستويات الثقافة وتداخل الثقافات :

وبناء على ما تقدم من جهة ، ورغبة فى التبسيط من جهة اخرى ، يمكن ان ننطلق فى بحثنا هذا ، من هذا التعريف المؤقت الذى نقترحه لكلمة «ثقافة» وهو : **الثقافة هى مجموع الانتاج الفكرى ، بالمعنى الواسع لكلمة فكر ، والمعبر عنه بصيغ عقلية صرف ، او بمختلف الصيغ**

الفنية المعروفة . ان تعريف الثقافة بهذا الشكل يمكننا من النظر اليها من ثلاثة زوايا او مستويات مختلفة ، ولكنها متكاملة :

ـ هناك **الثقافة فى المستوى الفردى** ، ونعني بها : **تمثل الفرد الانسانى لذلك الانتاج الفكرى ، أو لاى جزء من اجزائه ، ومشاركته فى اغنائه واثرائه** . ان المثقف ، بهذا المعنى ، هو من يتمثل ثقافة وطنه خاصة ، والثقافة الانسانية عامة ، ويشارك فى تنمية هذه وتلك بشكل من اشكال المشاركة . ومن هنا لا يمكن الحديث عن ثقافة كاملة ونهائية، **وانما عن مثقفين يتثقفون باستمرار** . ذلك ، لان الثقافة ، وطنية كانت او انسانية عامة ، ليست معطى نهائيا ، بل هي عملية نمو وتكون واكتمال ، والمثقف نفسه ، ينمو ويتكون ثقافيا من خلال تتبعه لتلك العملية واسهامه فيها .

ـ وهناك من جهة ثانية : الثقافة فى **المستوى المجتمعى** من حيث **انها تعكس واقع المجتمع الذى تنتسب اليه** : تعكس وضعيته ومطامحه واتجاه مسيرته . والحق ان الثقافة مرتبطة دوما بوضعية اجتماعية معينة وبمرحلة تاريخية محددة ، ارتباطا عضويا : انها تعبر ، بشكل ما ، عن الوضع القائم وعن حركة المجتمع : حركته فى الزمان ، وتحرك افراده ومجموعاته فى اطار العلاقات الاجتماعية القائمة . وانطلاقا من هذه الملاحظة نستطيع القول انه لا يمكن الحديث عن ثقافة مجتمع ما بكيفية مطلقة . ان الثقافة هى دوما ثقافة فئة ، ثقافة عصر . انها ثقافة **الخاصة** ، او ثقافة **العامة** ، بالتعبير القديم ، ثقافة **النخبة** او ثقافة **الجمهور** ، بالتعبير الحديث . واذا شئنا الدقة قلنا ان الثقافة، اذا نظر اليها من هذه الزاوية، تعكس دوما **وضعية طبقية معينة**.

ـ اما فى المستوى الثالث ، ونعني بها **المستوى الانسانى العام** بقطع النظر عن الزمان والمكان ، فان الثقافة هى **الاعمال الفكرية والفنية الخالدة** ، اى تلك الاعمال **التى تعبر عن موقف الانسان ازاء الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ازاء نفسه ومصيره** .

اذا كنا قد حرصنا هنا على التمييز بين هذه المستويات ، فانه يجب ان لا نغفل الطابع المنهجى المصطنع الذى حملنا على ذلك ، وبالتالى يجب ان لا ننظر الى المستويات الثلاثة المذكورة نظرة سكونية ، فنفصل هكذا بشكل تعسفى بين الفردى والمجتمعى والانسانى ، بل يجب ان

نضع نصب اعيننـــا ، انه فى هذا الميـــدان ، كما فى غيره من الميادين . **ليس هناك خاص مطلق ، ولا عـــام مطلق** . ان الثقافة على الصعيد الانسانى العام لابد ان تحمل بين طياتها شيئا من الخصوصية ؛ هى فى آن واحد ، خصوصية الفـــرد صاحب الاثر الثقافى ، اى الجانب الذاتى فى انتاجه ، وخصوصية المجتمع الذى انتـــج هذا الفرد ، اى وضعيته الطبقيـــة . وبالمثل فان الثقافـــة فى المستوى الفردى لابد ان تصطبـــغ بنوع العمومية والشمول ، والا لما كانت ثقافة .

ان عمومية الثقافة تحمل بين طياتها طابع الخصوصية ، كمـــا ان خصوصيتها تتسم ، ولا بد ؛ بشيء من العمومية . ان المطلق والنسبى يشكلان هنا ، حقيقـــة واحدة متكاملة . ان فلسفة افلاطون مثلا تعكس من جهة الوضعية الاجتماعيـــة للشعب اليونانى فى عصره ، كما تعكس ايضا مكـــان افلاطـــون فى هذه الوضعية . ولكنها مع ذلك ، تضـــم شيئا يتعدى افلاطون ويتجاوز معطيات مجتمعه، شيئا يتعلق بتطلعات الانسان وتساؤلاته ، تطلعات وتساؤلات تخترق سياج الزمان والمكان . ومثل ذلك يقـــال بالنسبة لشعر هوميروس ومسرح سوفوكليس وفلسفة الفارابـــى وشعر المعرى والمتنبى وقصص الف ليلـــة وليلة ومسرحيات شكسبير .. وغير ذلك من الآثـــار الثقافيـــة الخالـــدة .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يجب ان لا نغفل الحقيقة التالية ، وهى ان الثقافة **ليست هذا الجانب التعبيرى الانفعالى وحسب** ، بل انها ايضا **قوة فاعلة وسلاح خطير يؤثر فى الانسان** ، فيساهم فى تشكيل وعيه وتوجيه رؤاه ، وتحديد آفاقه ، كما يؤثـــر فى المجتمع فيعرقل مسيرتـــه او يدفـــع بها الى امـــام ، ويعمل فى ذات الوقت على توجيه المصيـــر البشرى عامـــة نحو هذه الجهة او تلـــك .

ومن هنا تلك الظاهرة المرتبطة بموضوعنا اشد ارتبـــاط ، ونعنى بها تأثيـــر الفكر العالمى فى الفكر الفردى والفكر الوطنى ، خصوصا فى هذا العصـــر الذى اصبحت فيه وسائل الطبع متيسرة كثيـــرة ، وادوات الاتصال والتواصل سريعة متعددة ، مما نتج عنه هذه الظاهرة التـــى نسميهـــا اليوم بـــ **«تداخـــل الثقافـــات»** .

نعم لقد كان هناك دوما ، وعلى مر العصور ، نوع من الاتصـــال والتداخل بين الثقافات المتواجدة فى عصر معين ، او المترابطة بفعـــل

الزمن ، ولكن مثل هذا التداخل كان بطيئا محدودا . وغالبا ما كان التداخل لا يتعدى مستوى الخلط والمزج ، وقليلا ما ادى الى اندماج كلي ، او الى مركب جديد . اما اليوم فان تداخل الثقافات اصبح يكتسي طابعا آخر ، هو طابع الغزو والسيطرة ، طابع الصراع الحضاري — الفكري الذي ليس الصراع الايديولوجي الا الشكل الاعلى من اشكاله . ومما يزيد في خطورة هذا الصراع انتشار المطيات الثقافية ، وسرعتها وفعاليتها المفرطة . ان الثقافة اصبحت اليوم ، مثلها مثل الهواء ، تدخل كل بيت ، وتغزو كل قلب ، وتقتحم كل عقل مهما كان مستوى يقظته او درجة غفوته .

3 — الثقافة الوطنية .. بديل للثقافة الاستعمارية :

كيف يمكن اذن الحديث عن «ثقافة وطنية» أمام هذا التداخل والصراع الذين يشكلان الطابع الرئيسي لعالم الثقافة اليوم ؟

الواقع ان المفهوم الصحيح للثقافة الوطنية يجب ان يحدد انطلاقا من هذا الصراع نفسه . ان مفهوم **الثقافة الوطنية** يجب ان ينظر اليه لا من زاوية ما يحمله مثقفونا في ادمغتهم من معلومات ، او يكتبونه من مقالات او دراسات وروايات ، **بل يجب تحديده ابتداء من الوضعية الاجتماعية والتاريخية التي نعيشها نحن شعوب العالم الثالث .** واذا كنت اخص بالذكر هنا ، شعوب العالم الثالث ، فما ذلك الا لان مفهوم الثقافة الوطنية مفهوم حديث ، يرتبط بظاهرة عامة ، حديثة ايضا ، هي نضال الشعوب المستعمرة من اجل سيادتها الوطنية وتحررها القومي . ومن هنا تلك السمة الاساسية المميزة للثقافة الوطنية في مفهومها الشائع اليوم ، الا وهي ارتباطها العضوي بالكفاح التحريري ضد السيطره الاستعمارية والنفوذ الامبريالي بمختلف مظاهرهما واشكالهما .

وبناء على ذلك ، فان الثقافة الوطنية لا تعني شيئا مقابلا للثقافة الانسانية او للفكر العالمي ، انها ليست البديل لا لهذا ولا لتلك، **وانما الثقافة الوطنية مفهوم نضعه في مقابل الثقافة الاستعمارية** سواء تلك التي نبتت في بلاد المستعمر نفسه ، او التي انشاها في البلاد المستعمرة له او التابعة لنفوذه بشكل من اشكال التبعية .

ان الاستعمار ، كما نعرف جميعا ، ليس تحكما سياسيا وحسب، ولا سيطرة اقتصادية لا غير ، وانما هو ايضا ، تسلط حضارى — ثقافى . واذا كان الغزو الاستعمارى السياسي قد استهدف فى الغالب تقويض البنيات السياسية القائمة ليقيم مكانها جهازا سياسيا واداريا عصريا يخدم مصالحه ويثبت وجوده ، واذا كان الغزو الاقتصادى الاستعمارى قد استهدف — وما زال يستهدف — نهب البلاد الخاضعة لنفوذه واقامة قواعد متينة لضمان السيطرة عليها ، فان الغزو الثقافى هو الجانب المكمل لكل ذلك : طمس معالم الثقافة الوطنيه ، اقامة بناء ثقافي جديد يكيف البلاد وشعبها لطمس معالم شخصيتها واعداد فريق من ابنائها ليكونوا سدنة للاستعمار ، وادوات لخدمة مصالحه والحفاظ علي نفوذه وسيطرته . وبعبارة اخرى آن الثقافة الاستعمارية تستهدف دوما غايتين متكاملتين : فصل الشعب المستعمر (بالفتح) عن ماضيه وحضارته وصرفه عن حاضره ، بتفكيك كيانه المادى والمعنوى من جهة ، والعمل علي ادماجه فى كيان الدولة المستعمره ادماجا يجعل منه اداة لها ومطية .

وهكذا ، فعندما قامت الشعوب المستعمرة بانتفاضاتها التحررية التى توجت بالاستقلال السياسى ، وجدت نفسها مفصوله عن ماضيها، بعيدة عن ثقافتها ، مشدودة بالرغم منها الى ثقافة المستعمر وحضارته. لقد عمل الاستعمار على فرض ثقافته ، لغته وتاريخه وحضارته ، بنفس الاسلوب الذى فرض به سيطرته السياسية والاقتصادية . وكما ان الاستعمار لا يدخل من الاساليب الاقتصادية الحديثة الى البلدان المستعمرة الا ما يمكنه من استغلال خيرات هذه البلدان بايسر الطرق واقربها ، فكذلك يفعل فى الميدان الثقافي : انه لا يعمل لنشر الثقافة العصرية لذاتها ، بل فقط من اجل ان يخلق فى الوطن المستعمر الادوات المحلية اللازمة له لتعميم سيطرته الاقتصادية ونفوذه السياسى وضمان الاستمرار لهما . ان المستعمر (بالكسر) لا ينقل كل ثقافة بلاده الى الشعب المستعمر ، لا ينقل العلم والخبرة الفنية ، ولا الفلسفة الثورية، وانما ينقل فقط ما يجعل هذا الاخير يرتبط به دون شعور ، ليعمل بنفس الصفة كأداة تخدم مقاصيده واهدافه .

لنستمع الى الرئيس احمد سيكوتورى ، المثقف الوطنى الافريقى ، يحدثنا عن هذه الظاهرة بقسوة ومرارة . يقول : «**لقد تعلمنا نحن**

الافريقيين فى مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا ، وحروب الغال ، وحياة جان دارك ونابليون ، وقرانا اشعار لامارتين ، ومسرح موليير ، ودرسنا التنظيم الادارى لفرنسا ، كما لو كانت بلادنا ، افريقيا ، بدون تاريخ ، ودون واقع جغرافى ، ودون قيم ، ودون اخلاق . لقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذى يرى انه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار . لقد اراد المستعمرون للمعلم الافريقى ان يظل فى مستوى ثقافى منحط ، حتى يخرج تلاميذه على يده اشد انحطاطا. لقد اراد المستعمرون للمثقفين الافريقيين ان يفكروا بديكارت وبرجسون، ولم يسمح لهم بالتفكير فى قيمهم وثقافتهم وتراثهم الافريقى» .

واذا كان هذا الذى يقوله سيكوتورى ينطبق على بلدان افريقيا السوداء ، فهو يصدق ايضا على افريقيا البيضاء ، على شعوب المغرب العربى . وهنا، وفيما يتعلق **بالمغرب خاصة** لست فى حاجه **الى ان** اصف لكم ما فعله الاستعمار الفرنسي بثقافتنا وتاريخنا **ومختلف مقومات** شخصيتنا حضارتنا ، فذلك شيء عشناه جميعا ، **ولا زلنا** نلمس آثاره ومخلفاته الى اليوم ، وانما الذى اريد التأكيد عليه ، هو ان هذا الذى فعله الاستعمار فينا ولا زال يفعله مباشرة او بوسائط محلية، لم يكن تدبيرا عشوائيا ، وانما كان مخططا مدروسا بعناية منذ البداية، كان غزوا منظما محكما ، صدرا عن فكر واع ، وتخطيط دقيق(1).

لقد كنت المبادىء العامة التى اقام عليها الاستعمار الفرنسى تعليمه بالمغرب ، مبادىء واضحة ، طبقية استعمارية : انشاء تعليم طبقى مهمته الرئيسية تنمية الفوارق الطبقية القائمة من جهة ، واعداد اليد العاملة للمعامل والشركات الفرنسية ، وتكون الاطر الصغيرة لادارة الحماية وجهازها القمعي من جهة ثانية . اضف الى ذلك كله محاربة اللغة القومية ، وطمس التراث الوطني ، واحياء الروح القبلية واذكائها ، وبعث اللهجات المحلية وتقنينها . وما ثانوية ازرو وما الظهير البربرى ، **وما «التعليم الاهلي» و «التعليم الاروبي» ، الا جوانب متكاملة** من المخطط الاستعمارى الذى احكم اعداده ، وسهر على تنفيذه فاصبح واقعا عانينا منه ، وما نزال نعانى من نتائج الى اليوم ، فى مختلف

---

(1) — راجع مقالة « المدرسة المغربية ووظيفتها الايديولوجية » المنشورة فى هذا الكتاب . ولمزيد من التفصيل انظر كتابنا : اضواء على مشاكل التعليم بالمغرب . دار النشر المغربية — الدار البيضاء .

ميادين حياتنا ، الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وما ازمة التعليم القائمة الآن ومنذ سبع عشرة سنة من الاستقلال ، وما التمزق الوجداني الذى نعاني منه ، وما الاغتراب الثقافي الذى نشعر به ، وما الفوارق الطبقية التى تنمو بشكل متزايد والتى جعلت من فئة صغيرة العدد ، المتحكم الوحيد فى مقدرات البلاد وشعبها ، ما ذلك جميعه الا نتائج قريبة أو بعيدة للمخطط الاستعمارى العام والثقافي منه بشكل خاص .

نعم ، لقد ادرك الشعب المغربي ابعاد واخطار هذا المخطط : ادرك بومذاك بحدسه التلقائى وحسه الوطني ، أن السياسة التعليمية الفرنسية ، سياسة لا وطنية ، فحاربها من اول يوم ، وقاطع مدارس الحماية ، وفضل ان يهرب ابناءه الي البوادى على ان يجعل منهم زبناء للمدارس الفرنسية . أجل انها كانت مقاومة سلبية ، ولكنها كانت فى حقيقتها وجوهرها ، مقاومة طبيعية صادرة من جانب الشخصية المغربية التي شعرت بالخطر يتهددها فى اهم مقوماتها .

على ان هذه المقاومة السلبية سرعان ما اتخذت طابعا ايجابيا هاما ، تجلى فى احياء جامعة القرويين وكلية ابن يوسف وانشاء فروع لهما ، كما تجلى وبشكل اكثر فعالية فى قيام الحركة الوطنية ، بمساندة وتطوع الجماهير الشعبية فى مختلف المدن ، ببناء وتمويل المدارس الوطنية الحرة . ولقد كانت النتيجة كما تعلمون . ويكفي أن نشير الى ان معظم اطر الحركة الوطنية وحركة المقاومة والتحرير انما تخرجت من هذه المعاهد والمدارس الوطنية بالذات . لقد التحمت فعلا يومذاك معركة التحرير السياسي بمعركة التحرير الثقافي ، واصبح النضال من اجل الثقافة الوطنية ، جزءا لا يتجزأ من اجل النضال العام من اجل السيادة الوطنية . وتسربت الروح الوطنية ، والنضال من اجل ثقافة قومية الي المدارس التى اقامها الاستعمار نفسه . فلقد استطاعت الحركة الوطنية استقطاب غير قليل من زبناء هذه المدارس ساهموا فى اغنائها وتطويرها ، بل وقيادتها . ولكن فريقا آخر من رواد المدارس الفرنسية ببلادنا ظل اسير الثقافة الفرنسية ، سجين المقلية الغربية ، فكان منهم من استطاع الاستعمار صنع ادمغتهم وقولبة تفكيرهم : وتلك حقيقة لمسناها ، وما زلنا نلمسها الى اليوم.

4 — مكونـات واقعنـا الثقافـي الراهـن .

لقد كان الغرض من هذا العرض التاريخي — التحليلي ، القـاء بعض الاضواء على العناصر الاساسية المكونة لواقعنا الثقافي الراهن ، وهي عناصر نعود فنجملها في ثلاثة رئيسيـة : استمـرار حضـور الثقافـة الاستعمارية ، استمرار رد الفعل الوطني ، السلبي منـه والايجابي ضد الثقافة الاجنبيـة ، ثم بداية حضور الايديولوجيـات المتصارعـة في عالـم اليـوم .

ان استمرار **حضور الثقافة الاستعماريه** في بلادنا يتمثل في جوانب ومظاهر كثيرة متعددة ، لعل اهمها ، واكثرها خطورة ، استمرار سيادة اللغة الفرنسية في المدارس والادارات والشوارع على حساب لغتنـا القومية ، واستمرار طرق وقوالب التفكير الاستعماري الرجعي المتخلـف لدى كثيـر ممن ينتمون الى عالم الفكـر والثقافـة او عالـم الادارة والسياسة . اضف الى ذلك كله قيام نـوع من الايديولوجيا متخلـف يعكس البنيات الاقتصادية والاجتماعية التي انشأها الاستعمار او عمل على استمرارها وتنميتهـا وتوجيهها . وعلى العموم ، يمكن القول ان موقف هؤلاء الذين يتجسم فيهم استمرار حضور الثقافة الاستعمارية . هو موقف اللامبالاة من قضايانا الراهنة المصيرية ، هو موقف سلبـي انتهازي هدام . يعيش لحاضره آملا استمرار هذا الحاضر الى الابد .

واما بالنسبة للعنصر الثاني من مقومات واقعنا الثقافي الراهن ، وهو ما عبرنا عنه **باستمرار رد الفعل الوطني** ضد الثقافة الاجنبيـة ، فيتمثل خاصة في ذلك الاتجاه التقليدي الذي يمجد الماضي ويقدسـه ، ويرى فيه ، او في احدى فتراته ، الصورة النموذجية التي يجـب ان تتجسد في الحاضر والمستقبل ، وتلك رؤية هاربة الى الوراء لعجزها عن مواجهة الحاضر والمستقبل ومشاكلهما . انها رؤية صادرة عن وعـي مزيف مسلوب ، وهي يجسم ظاهرة «**الاغتراب في الماضي**» ، بكل ما في هذه الظاهرة الشاذة من آفاق سلبية وابعاد رجعية .

وهنا يجب ان يكون واضحا في اذهاننا ان الثقافة الوطنية لا تعني الاغتراب في الماضي، مهما كان هذا الماضي مجيدا وضاء . ان احيـاء التراث القومي ، لا يخلق الثقافة الوطنية ، وانما يحيي ثقافة كانـت موجودة ، وطنية كانت او غير وطنية . انه تـراث ثمين ولاشك ، ولكنه

وحده لا يشكل الثقافة الوطنية الحقة ، ثقافة الواقع الحاضر والمستقبل المأمول .

ان الثقافة الوطنية يجب ان تهتم بالماضى حقا ، ولكن لا من اجل ان تجعل منه الحقيقة المطلقة ، الحقيقة النهائية الخالدة ، بل من اجل ان نربط بين ما هو صادق فيه واصيل ، وبين معاناتنا وتجاربنا الحاضرة . ان احياء الماضى الذى طمسه الاستعمار او تشوهه ، ان تصحيح معرفتنا بماضينا وتراثنا القومى ، ضرورة من ضرورات الثقافة الوطنية . ولكن «احياء الماضى» ، اى التعبير عن معاناتنا وتجاربنا الراهنة ، عن حركة واقعنا وتموجاته ، عن حيرة شعبنا وتطلعاته ، هو وحده الذى يخلق الثقافة الوطنية الحقة ، الثقافة التى تساهم فى اغناء النضال الشعبى وتوضيح طريقه وآفاقه . ان اصالة الثقافة ليست فى كونها ذات جذور فى الماضى وحسب ، ذات حيز فى التاريخ ، وانما اصالتها كامنة بشكل اوفى واعمق فى قدرتها على التعبير الصادق عن الحاضر وآلامه والمستقبل وآماله ، وفيما تقدمه من امكانيات تدفع الى امام وتعجل ببلوغ الهدف .

واما بالنسبة للعنصر الثالث والاخير من عناصر واقعنا الثقافى الراهن ، فهو ذلك الذى عبرنا عنه ب «**بداية حضور الايديولوجيات المتصارعة فى عالم اليوم**» . وهو حضور يتمثل خاصة فى تواجد تيارين ايديولوجيين رئيسيين يجتاحان العالم الثالث اليوم : الايديولوجيا الامبريالية التى هى امتداد وتطوير للثقافة الاستعمارية من جهة ، وايديولوجيا الاشتراكية العالمية من جهة ثانية . وفيما يخص حضور هذين التيارين فى واقعنا الثقافى الراهن ، يمكن القول على العموم انه حضور «مهزوز» ، ان صح التعبير . بمعنى ان كلا منهما **يفتقد فى بلادنا القاعدة المنظمة التى لابد له منها لكى يتأصل ويتجذر .**

ان بعض شذرات الايديولوجيا الامبريالية التي تطفو على بعض نماذجنا الثقافية ، لا تعكس فى الحقيقة واقعا بورجوازيا او راسماليا وطنيا ذا بنيات تتجاوب معه وتقدر على حمله ، وانما تعكس فى الغالب وضعية شاذة ، هي وضعية بورجوازية وطنية طفيلية وظيفية ، وارستقراطية مكتبية متمفنة ، تقومان بدور الوسيط والخادم للراسمالية الغربية عامة والفرنسية منها خاصة . ولذلك كان المعبرون عن

هذه الايديولوجيا ، سواء بالصيغ الفنية او الفلسفية او الكتابات السياسية، يصدرون هم ايضا عن وعي مزيف ، يجسم ظاهرة اخرى شاذة يمكن وصفها بأنها ظاهرة «**الاغتراب في الغرب**» .

نجد امثلة متعددة لهذه الظاهرة الشاذة في كتابات كثير من مثقفينا في العالم العربي كله ، اي لدى اولئك الذين تبنوا الكثير من الصيغ الادبية والفلسفية للايديولوجيا الامبريالية ، معتقدين انهم بذلك يجددون ثقافتنا الوطنية ، او يبنون نوعا جديدا من الثقافة في وطننا العربي ... لقد فشلت جميع المحاولات التي من هذا القبيل في استقطاب ولو جماعة صغيرة من شبابنا المثقف ، **لانها** محاولات لا تتعدى في الغالب مجرد الاقتباس السطحي ، من بناء فوقي غريب عنا ، بناء مرتبط بالاسس المادية والتجارب الحياتية للغرب وحضارته . ان البرجسونية او الوجودية او الشخصانية او السريالية او الماركوزية ، كل ذلك مظاهر فكرية تعبر عن واقع معين ، واقع الغرب وتناقضاته وتوتر بنياته وشخصيته .. **اما نحن في العالم العربي ، فاننا نعيش واقعا آخر** يختلف اختلافا اساسيا عن واقع الغرب وتجربته . **اننا نعيش تجربة الميلاد ، والغرب يعيش تجربة اخرى** قد تكون تجربة شباب او كهولة او شيخوخة . ولذلك فان شعبنا لم يهتز ، ولا يمكن ان يهتز ، عند ما تقدم له مثل هذه المحاولات الفجة المقتبسة من عالم غير عالمه ، والتي تعكس اهتمامات غير اهتماماته .

ان هؤلاء المغتربين في الغرب ، المتمسكين به لكي لا ينهار وجودهم، واولئك المغتربين في الماضي القابضين عليه بالنواجذ اتقاء ضياعهم ماديا ومعنويا ، مثلهم جميعا كمثل الرجل البدائي الذي يسجن نفسه في اخطبوط من العادات والتقاليد اللامعقولة **كي لا ينهار العالم** . (سأل احد الباحثين رجلا من الاسكيمو قائلا : ما معنى هذه التقاليد والعادات التي تتمسكون بها ، ولماذا تتمسكون بها بهذا الشكل ؟ فاجاب رجل الاسكيمو : «انني لا ادرى لهذه التقاليد من معنى ، ولكننا يا سيدى نتمسك بها لكي لا ينهار العالم)!!

على ان مثل هذا الموقف لا ينطبق فقط على الذين تحدثنا عنهم ، بل انه ينطبق ، ومع الاسف الشديد على بعض الذين يعلنون انتماءهم الى التيار الايديولوجي المقابل : تيار الاشتراكية العالمي . ودون الدخول

فى مجادلات ومشادات كلامية قد لا تنتهي الى نتيجة ، يمكن ان نقـــرر حقيقة واقعيـــة تفرض نفسها على كل ذى نظرة سليمة موضوعة، وهى **ان الايديولوجيا الاشتراكية لم تتاقلم بعد فى بلادنا ، التاقلم الكافـــــى والضرورى لتحقيق اهدافها . انها فى معظم الاحوال تؤخذ كنظريـــة او كشعارات جاهزة ترضى نزعة الهروب من المشاكل الملموسة والميـــل الى الكسل امام الحلول المعقدة المستعصية . وبعبـــارة اخـــرى ان الايديولوجيا الاشتراكية التى تنتشر شعاراتها و «مختزلاتها» بين شبابنا اليوم ، لا زالت لم يتوفر لها ما يلزم من الاسس الضرورية الموضوعيـــة منها والذاتيـــة ، وعلى راس هذه الاسس وجود فكر واع يهضمهـــــا، وتنظيم شعبى بروليتارى يبلورها فى ممارسة واعية هادفة ، ويجعل منها، وبواسطـــة هذه الممارسة نفسها ، حركة فكرية ديناميـــة تعبر فى اطار النظريـــة العامـــة عن خصوصية التجربه المحليـــة .**

هل تشكل هذه العناصر الثلاثة التى تحدثنا عنها ، ما يمكن أن يكون اساسا لثقافة مغربية وطنية حقة ؟ اعتقد ان فى الذى قدمنـــاه ما يكفـــى للجواب على هذا السؤال. اما الآن فعلينا ان نتجه وجهة اخرى، وجهـــة البحث عن القاعدة السليمة التى يجب ان تبنى عليها ثقافتنا الوطنيـــــة المنشـــودة .

5 — من اجـــل ثقافـــة وطنيـــة حقـــــة .

يمكن القول باختصار **ان الثقافة الوطنية هى الثقافة التى تعبر بصدق وامانة عن روح الشعب** . ولسنا نعني بروح الشعب هنا اية فكـــرة ميتافيزيقية أو اى تصور غيبى . اننا نعني به خلاصة الحياة الوجدانيـــة والفكرية لمجموع افراد الشعب بوصفهم كلا واحدا يصنع تاريخا واحدا . ولما كان معظم افــراد شعبنا من الكادحين ، ولما كان غير الكادحين بين صفوفنا ، على قلـــة عددهم ، لا يشكلون سوى فئة طفيلية مستهلكة ، فان روح الشعب لن تكون شيئا آخر غير خلاصة آلام وآمال الكادحين. وبالتالي فـــان **الثقافة الوطنية هى تلك المرآة التى تعكس بعمق ووضوح الوضعية التاريخية التى يعيشها شعبنا بكل ملابساتها وابعدها .**

وبناء عي ذلك ، فان الثقافة فى بلادنــا لن تكون وطنية حقا ، الا اذا ارتكزت على الاسس الثلاثة التاليـــة :

1 ــ لما كانت روح شعب من الشعوب انما تتجلى اول ما تتجلى فى لغته القوميـــة ، فان الثقافة الوطنية التي ننشدها لا يمكن ان نستوفـــى شروط وجودها ، ولا ان تقوم بالمهام المنوطة بها الا اذا كانت بلغتنـــا الوطنيـــة : **اللغة العربيـــة** .

ان الثقافة الوطنية لا تتحدد من حيث الشكـــل ، لا بالارض ، ولا بالموقـــع الجغرافى ، ولا بالاصل العرقى ، وانما تتحـــدد اساسا باللغة. ان اللغة ليست كما يقـــال مجرد اداة للتعبير ، بل انها اكثـــر من ذلك كثيرا ، انها الفكـــر ذاته ، انها الوجدان ذاته ، انها الثقافـــة ذاتها. واذا اردتم مثالا بسيطـــا على ذلك ، فحاولوا ان تترجموا نكتـــه مغربية الى لغة اجنبيـــة. انها ستفقد معناها ومغزاها وتصبح هيكلا جامـــدا ثقيلا لا روح فيه . وما ذلك الا لان الفكتة تعبير موجز عن احـــدى فلتات الروح الشـعبيـــة بشكل **مكثف** . ولن يستطيع حمل هذه الكثامة الاجانب آخر من تلك الـــروح نفسها ، الجانب المعبر عنه **باللغة** . وكما قـــال العالم اللغوى الالمانـــى Gunther Ipsen : **«ان اللغة هى الـــروح الحقيقية للامـــة ، الروح التى تشكـــل عالما خاصا بها ، تكشف فيـــه عن نفسهـــا . ان الامة هى «ال نحن» الذى يعـــى نفسه فى اللغـــة ويتواصـــل بواسطتهـــا»** .

واذن فان الثقافة الوطنية المغربية بدون عروبة الفكر واللسان ، ثقافـــة **«منفيـــة»** ، ستبقى باهتة لا لون فيها ، عاجزة عن التعبير عـــن اوسع الجماهير والتأثير فيها. لذلك نجدها تنحط فى كثير من الاحيـــان الى مجـــرد **بضاعة اجنبية من صنع محلى** .

اجل ، لنتعلم اللغات الاجنبية ، ولكن لتكن لغتنا القومية هى قالب وعينا وتفكيرنا وتعبيرنا . لنقتبس من الشرق والغرب العلم والتكنولوجيا بأية لغة كانت ، اذا كانت الظروف تفرض علينـــا ذلك بصفة مؤقتـــة ، ولكن لتكن الثقافـــة العامة عربيـــة الفكر واللسان ، وليكن التعبيـــر عن **«انسيتنـــا»** تعبيـــرا عربيـــا قوميـــا .

2 ــ والثقافة الوطنية ليست ، ولا يمكن ان تكون ثقافة نخبـــة او صفوة ، انها ليست ترفا وزينة، بل انها ثقافة للشعب كله ومن الشعب كلـــه. ان تقييد التعليم وتكوين الاطر بالحاجيات والوظائف الشاغـــرة ، تفكير لا يمكن ان يصـــدر عن مثقف وطنى ، انها سياسة رجعيـــة ،

تخشى «بطالة المثقفين» ، تخشى نشوء انتليجانسيا واعية ، أنها بالضبط استمرار للسياسة التعليمية الفرنسية فى المغرب التي سبق الحديث عنها . يجب ان ننظر الي تعليمنا والي تخطيطاتنا الثقافية من زاوية ما يجب ان يكون ، من زاوية مطامح شعبنا وتطلعات شبابنا ، أى من زاوية المهمة التاريخية الملقاة على عاتقنا وعاتق ابنائنا . ان بلدا متخلفا لا يمكن ان يأخذ طريق التنمية الحق الا مع نشر الثقافة والتعليم على اوسع نطاق وفى كل مجال . «لنترك مائة زهرة تتفتح» وحينئذ سنقطف من الثمار ما لا يقدر ثمنه .

3 ـ ان الثقافة الوطنية ليست ـ كما قلنا ثقافة الماضى ـ **بل هى احتواء هذا الماضى بعد تصحيح معرفتنا به** ، وهى ليست الثقافة المستوردة من الخارج ، **بل هضم للثقافة العالمية وتمثل واع لمضامينها وابعادها . «انها تفاعل ذاتى ، وتكيف خارجى ، موقف فكرى وعملى من الحياة والتاريخ»** ، ان الثقافة الوطنية ، كما يقول فراتز فانون «هى مجموع الجهود التى يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من اجل ان يصف ويبرر ويغني النضال الذى به يتكون الشعب ويبقى» .

الثقافة الوطنية عملية دينامية ، هى هدم وبناء ، هدم للثقافة الاستعمارية وبناء للثقافة الشعبية . وكما يقول **ماوتسى تونغ**، باسلوبه الشعبي البسيط : **«لابد ان تعتمد الثقافة الوطنية ، على الفأس والقلم : الفأس لهدم الثقافة الاستعمارية، والقلم لبناء الثقافة الوطنية»**.